المَعرِفَةُ واليَقِينُ

بين الرؤيتين الإسلامية والغربية

الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي

لعل كلمة ((المعرفة)) من أكثر الكلمات دوراناً وتداولاً فيما نقرؤه من الكتابات الغربية المنبثقة عن الرؤية الفلسفية، أو المنبثقة من علم الاجتماع والتربية.

في حين أن كلمة ((اليقين)) بالمقابل، أقل ما تحفل به هذه الدراسات الغربية، وأقل الكلمات وروداً فيها واستعمالاً لها. هذا مع العلم بأن المعرفة التامة بمعناها الذاتي لا تتحقق بدون يقين.

والفلسفة الغربية تعتذر عن هذه المفارقة المرفوضة (علمياً) بما تؤكده، من أنه لا توجد في الكون حقيقة مطلقة، أي غير مشروطة، بل كل ما يعبَّر عنه بالحقيقة فإنما هو حقيقة نسبية، خاضعة للتغير تحت سلطان الزمان والمكان، وما يسميه المناطقة بالوحدات الثمانية. وهذا ما يستوجب انفصال المعرفة عن اليقين في أكثر الأحيان.

إن المعرفة – فيما تراه الفلسفة الغربية – ثمرة المعاناة التي يبذلها العقل، على طريق الإدراك. والشأن فيها أن تكون متقاصرة دائماً عن بلوغ درجة اليقين، للسبب المذكور. ومن ثم فإن اللزوم ليس موجوداً بالضرورة بين المعرفة واليقين.

وحتى في القضايا الحسية التي يتم إدراكها بالموازين الرياضية المحددة، قلّما يرقى الإدراك فيها إلى درجة اليقين. لأنها تظل خاضعة للتطور والتبدل.

من أجل ذلك لا تفتأ الدراسات الغربية اليوم، لا سيما الاجتماعية منها، تتجه بالنقد إلى الفلسفة اليونانية القديمة، المادية منها والمثالية، بسبب أنها (أي الدراسات الغربية) لا تتجاوز أفكاراً معرفية نظرية، وأنها تظل تتحرك في ساحة الاحتمالات وضمن درجات الممكن..

وهي – أي الدراسات الغربية اليوم – ترى أن الهبوط عن ذلك المستوى المتعالي في البحث العقيم، إلى ساحة الأفعال والتجارب المجدية، أولى بالإنسان: هذا الكائن الذي كان ولا يزال تواقاً إلى تحقيق حاجاته الفردية والاجتماعية، مثل إشادة البنيان ونسج الثياب وإقامة الصناعات وإبداع الفنون وتطوير الزراعة. ومما لا ريب فيه أنه لا بد من اتخاذ سبل فكرية وعلمية إليها هي الأخرى. غير أن نجاح هذه السبل رهن بالتجربة الناجحة المحسوسة، وليس متوقفاً على اليقين.

وللتفريق بين السبيل العقلي إلى الأفعال التي يتوقف النجاح فيها على التجربة، والسبيل العقلي الفلسفي إلى اليقين الذي لا جدوى من محاولة الوصول إليه، اصطلحت الدراسات الغربية الحديثة على تسمية الأول منها ((علماً): (Science) وعلى تسمية الثاني ((معرفة)): (Knowledge).

ولعل من أبرز الثائرين على المعرفة الفلسفية المتعالية، والداعين إلى الانشغال بالأفعال المهنية والصناعية بدلاً من الانصراف إلى الانفعال الفكري العقيم، العالم الفلسفي والتربوي (جون ديوي) وكتابه (البحث عن اليقين) خير شاهد على ذلك.

ومن أشد ما ورد في هذا الكتاب ثورة على الفلسفة التقليدية الكلاسيكية قوله:

((إن الظن بأن القيم غير المستقرة المتقلبة في العالم الذي نعيش فيه، آمنة أبداً في عالم أعلى (مما يبرهن عليه العقل ولكن لا يستطيع تجربته) وبأن جميع الخبرات التي تنهزم هنا تنتصر هناك، قد يهب العزاء للمحزون، ولكن ذلك لا يغير واقع الموقف بحال. إن الفصل الذي قام بين النظر والعمل، وما تبع ذلك من استبدال البحث العقلي لبلوغ التوكيد المطلق بالجهد العملي لجعل

الحيز أكثر أمناً في الخبرة، قد حوّل الأنظار وشتت الجهود عن مهمة لو تمت لأفضت إلى نتائج محددة))

((وأعظم مسألة تحقق الأمن المحسوس للقيم، ترجع إلى تكميل ((مناهج)) العمل. فالنشاط لمجرد النشاط، والسعي الأعمى، لا يخطوان بنا إلى الأمام. وليس تنظيم الظروف التي تعتمد النتائج عليها ممكناً إلا بالعمل .. وإنما يكون ذلك بالعمل الذي يهتدي بالذكاء الذي يحيط بالظروف علماً، ويلاحظ ما فيها من علاقات التتابع. أما القول بأن الفكر، منفصلاً عن العمل، يمكن أن يضمن اليقين الكامل فيما يختص بمنزلة الخير الأقصى، فلا يعين على حل المشكلة الرئيسية الخاصة، بنمو الطرق البصيرة للتنظيم. بل الأولى أن يثبط الجهود التي تبذل في هذا الاتجاه وترشده))([1])

*		*		*

إذن فإن هذه النظرة تتهم المعرفة، من حيث ذاتها، بالعجز عن بلوغ درجة اليقين، ومن ثم تعلن الاستغناء عنها، وتدعو إلى الاشتغال بما هو أجدى، وهو النشاط الفعلي القائم على التجربة السلوكية.

غير أن الرؤية الإسلامية، تفنّد كلاً من هاتين الفكرتين. فللمعرفة سبيل ميسرة إلى اليقين لو تم السلوك إليه.. وهو الأمر الذي يدل على أن الحقيقة المطلقة موجودة. وإنما الذي يحول دون الوصول إليها الجهل. وبعبارة أدق: الجهل بالمنهج الذي يجب أن يعتمد في البحث عنها والسير إليها.. ألا ترى أن الإنسان يتعامل مع الحقيقة المطلقة، ربما بدون أن يشعر، في كثير من القضايا التافهة وربما السخيفة، كمعرفة أن ٢×٢=٤ وأن باريس تقع في فرنسا، وأن نابليون مات في اليوم الخامس من أيار عام ١٨١٢ وأن الطيور لها مناقير.. فهذه وأمثالها تدل على أن معارفنا النسبية تنتمي إلى جذور من الحقيقة المطلقة.

---

(١) البحث عن اليقين: ص ٥٩و٦٠.

وعلى كل حال، فإن القول بالاستغناء العملي عن المعرفة النظرية، وهم يبعث الأخذ به على قدر كبير من الحيرة، ويزج صاحبه في الشعور بالوحشة، تجاه التعامل مع الحياة، ويلغي الرابطة القائمة بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية الخاضعة للتجربة.

ثم إنه ليس مهماً بالنسبة لمن زجَّ به في مكان غريب، أن يجد أمامه مائدة توافرت عليها أصناف الطعام .. إنما الأهم من ذلك أن يتعرّف على المكان الذي هو فيه، وأن يعلم السبب الذي ساقه إليه وأدخله فيه. وما لم يعلم ذلك، فسيستقر في نفسه ووعيه أنه سجين في ذلك المكان.

ولكن كيف السبيل إلى اخيراق ظواهر الامور النسبية إلى المطلق؟

تجيب الرؤية الإسلامية بأن المهم أن نعلم أولاً بأن مصدر الخطأ يكمن فيما يتصوره الباحثون الغربيون من أن الكون ليس إلا ساحة واسعة لحقائق شتى مستقل بعضها عن بعض !.. إن الرؤية الإسلامية لا تقرّ بهذا الذي ذهبت إليه الأفكار الغربية قديماً وحديثاً. بل تقرر وتؤكد أن الوجود الكوني إنما يحتضن حقيقة واحدة. ولكنها ذات جوانب أو أجنحة شتى .. ونقول بعبارة أخرى: إن الوجود الكوني وحدة مترابطة المرافق والأجزاء، فلا تستقيم معرفة أي جزء منه بمعزل عن معرفة الأجزاء الأخرى. إن معرفة أي جزء من هذا الجهاز الكوني، لا يمكن أن تتم إلا ضمن قاعدة واسعة، وإن لم تكن دقيقة، من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها. أو بتركيبة الجهاز الكوني من حيث هو.

إن ما نراه من موضوعات المعارف والعلوم المستقلة بعضها عن بعض، ليس في الواقع إلا أجزاء متراكبة متآلفة في بناء هذا الهيكل الكوني كله .. إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل ما يجعلك لا تحيط علماً بأي منها إلا على ضوء ما يبصّرك به المجموع الكلي لهذا الهيكل الشامل .. وليست كما قد يُتَوهَم حقائق متناثرة منفك بعضها عن بعض.

وقد علمنا أن بنيان هذا الوجود الكوني، يتألف من أركانه الثلاثة الكبرى، الإنسان والحياة التي يتمتع بها، والموجودات الكثيرة التي تموج من حوله .. فما ثمة فن من الفنون المختلفة، أو علم من العلوم المتنوعة، إلا وهو دائر في فلك هذه العناصر الثلاثة الكبرى. ومما لا ريب فيه أن هذه العناصر متصلة، متفاعلة، يتقوم كل منها (في مظهره ووظيفته وآثاره) بالعنصرين الآخرين.

ومن هنا فإن على من أراد أن يتجه إلى دراسة أي من العلوم الكونية، كالفلك والنبات وطبقات الأرض، والتاريخ الطبيعي، أو إلى أي من العلوم المتعلقة بجسم الإنسان أو بإنسانيته، كالطب والتشريح والأجنّة والخلايا الحيوانية، والتاريخ والتربية والأديان، نقول: إن على من أراد أن يتجه إلى شيء من هذه العلوم والمعارف أن يجعل منطلقه إلى ذلك التبصُّرَ بالحقيقة الكونية الجامعة التي تتفرع عنها هذه المعارف والعلوم كلها، والمتمثلة –كما قلنا– في: الإنسان، والكون، والحياة، مع ضرورة التأمل في مظهر العلاقة السارية فيما بينها. وهو المظهر الذي يكشف عن كونها حقيقة واحدة.

إن هذه الضرورة لا تختلف قط عن الضرورة التي يشعر بها ذاك الذي بسط أمامه خارطة، ليعلم موقع بلدٍ أو مجرى نهر أو مسار سلسلة من الجبال .. إن من البداهة بمكان أن عليه قبل كل شيء أن يتصور الرسم الكلي للخارطة، وأن يتبين موقعها من الاتجاهات الفلكية المحيطة بها، وما يتقاسمها من خطوط الطول والعرض .. فإن هو لم يبدأ بذلك، لم تتحقق أي قيمة لتصوراته الجزئية عن تلك الخارطة وما تناثر فوقها من أسماء المدن والأنهر والجبال وإن هو توهمها معرفة وعلماً.

إن شكوى الباحثين الغربيين من أن المعرفة المتعالية التي تبحث في الحقائق الكونية لا توصل أصحابها إلى يقين، مردّها إلى أنهم يصرون على أن يتجاهلوا وحدة الكون وصلة ما بين الحقائق الكونية، والرابطة السارية فيما بينها. وإنها لرابطة وثيقة تجعلها تبدو وكأنها فصول متعددة من كتاب ذي موضوع واحد. فما الذي ينبغي أن نتوقعه من باحث عمد على فصل من كتاب، راح يدرسه مفصولاً عن الفصل الذي قبله والذي بعده؟!.. مما لا شك فيه أنه سيعود بمعلومات مضطربة مهزوزة، وفي أفضل الأحوال تظل من تفكيره في مرحلة الشك أو الظن.

على أنهم لو أرادوا أن يصححوا أفكارهم وأن يفترضوا أن ما يتوهمونه حقائق كونية مستقلة بعضها عن بعض، ليست في ذاتها إلا حقيقة كلية واحدة ذات زوايا أو أجنحة متعددة، لن يتبينوا مصداق ذلك، لأن الخارطة الكونية التي تبرز لهم ذلك وتؤكده، غائبة عنهم .. وسأتحدث عن هذه الخارطة الكونية وأعرف بها بعد قليل.

ومما هو جدير بلفت النظر أن الباحثين الغربيين الذين تدفعهم الرغبة إلى أن يصلوا من معارفهم بما يسمونه الحقائق والظواهر الكونية، إلى اليقين، لا يعودون من سعيهم الخائب باللامبالاة التي ينصحهم بها جون ديوي وأمثاله، بحجة أن لهم في الأنشطة العملية التجريبية ما يحقق لهم ثمرات معاشية مجدية، تعيضهم عن تلك البحوث المعرفية العقيمة .. بل إنهم لا يعودون من سعيهم الخائب إلا بالحسرة والوحشة.

ذلك لأنهم يجدون أنفسهم، بعد سعيهم العقيم، من الدنيا التي يتقلبون فيها، أمام لغز يستعصي على العقل فهمه. واللغز الكوني المجهول حله، يفترض العقل فيه احتمالات شتى قد يعود بعضها بل كثير منها على الإنسان بنتائج مشقية وربما مهلكة. إن المجهول، لا سيما المتصل بحياة الإنسان ومعايشه، لا بد أن يقّض مضجعه ويبعث في نفسه قدراً كبيراً من الاضطراب، ولسوف يزداد ذلك تأثيراً عليه، ما دام غلاف الجهالة مثبتاً فوقه. ولن يسلّيه عن ذلك التشاغلُ بالأنشطة العملية التجريبية.

وإليك برهان هذا، متمثلاً في مواقف وكلمات لطائفة من الباحثين، تؤكد أنهم ارتدّوا عن رحلة المعرفة إلى مشاعر من الوحشة والأسى، والضيق بالمجهول الذي يحيط بهم.

يقول برتراند رسل في مقدمة كتابه ((سيرتي الذاتية)) في تحسر وألم:

(قضيت حياتي سعياً إلى ثلاث غايات: الحب، والسلام، والمعرفة. ولقد أتيح لي أن أحقق قدراً كبيراً من الغاية الأولى والثانية. أما المعرفة فقد عدت منها بأوكس الحظوظ) (١)

ويروي الكاتب الأمريكي جورج فيرك حواراً جرى بينه وبين صديقه أنشتاين، سأله خلاله عن الموت وحقيقته. ففاجأه أنشتاين بقوله: لا أدري !.. فدُهش فيرك من جوابه، وقال له: لا تدري.. وأنت صاحب النظرية النسبية، وصاحب الفضل في تحديد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية ؟!..

(١) سيرتي الذاتية: ص: ٦ و٧

فقال له أنشتاين: أرأيت إلى طفل دخل مكتبة رصفت فيها الكتب بوجه كل من جدرانها الأربعة مرتفعة إلى السقف. ولما سئل الطفل عما يراه، أجاب: هي كتب تحوي علوماً شتى بلغات متعددة .. إنني لا أعرف عن هذا الكون أكثر مما عرفه الطفل عن تلك المكتبة !..(١)

أما انجلز شريك ماركس في وضع استرتيجية المادية الجدلية، فقد اجتاحته حيرة السير إلى المعرفة ثم الرجوع عنها خالي الوفاض إلى حيث لم يجد بداً من القول بأن الأجيال القادمة على الأرجح ستنهمك في تصحيح أخطائنا، لا سيما في شؤون التاريخ والتاريخ الطبيعي. ويقول: ((إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشدّ حراجة، في المجموعات الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشد تخلفاً منها في ميدان الحياة(٢).

ولا تقل حيرة داروين عن حيرة انجلز وأنشتاين. وهو يتحدث عن التاريخ القصيّ للإنسان ويدلي بافتراضاته عن أصل الأنواع. فقد كان جوابه لمن ناقشه في بعض ما ذهب إليه من العوامل التي تدخلت بنظره في تطوير الإنسان، قوله: ((إننا لا ينبغي أن نتوقع العثور على جواب محدد معين على هذا السؤال. إذا عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة على سؤال أقل من هذا السؤال تعقيداً))(٣)

إذن فقد كان العجز المعرفي، ولا يزال، غصة في صدور هؤلاء الباحثين، لا سيما ذلك العجز المتعلق بمعرفة ذات الإنسان ومبدئه ومصيره، ولم تحملهم هذه الغصة على أن ينفضوا أيديهم أو عقولهم عن هذه المعانات، وعلى أن يتجهوا بدلاً من ذلك إلى الأنشطة العملية المعيشية القائمة على التجربة بدلاً من اليقين.

*		*		*

---

(١) مجلة العلوم اللبنانية ، السنة الرابعة، العدد الثالث.

(٢) أنتي دوهرنغ: ص١٠٩.

(٣) أصل الأنواع: ص٤١٢.

أما الان، فبوسعنا أن نؤكد أن الرؤية الإسلامية لا تعاني من هذه المشكلة، ولا ترى أن ثمة انفكاكاً بين المعرفة واليقين.

إن إدراك الشيء لا يرقى إلى درجة المعرفة (في المصطلح الإسلامي) إلا إذا أثمر اليقين. ومن ثم فإن بين المعرفة واليقين تلازماً مستمراً. وعندما يقع بينهما الانفصال، تتحول المعرفة عندئذ إلى شك أو ظن .. وهذا هو السبب في أن المنهج الإسلامي إلى المعرفة لا يفرق إلى اليوم بين مصطلحي المعرفة والعلم، أللهم إلا الفارق اللغوي الذي لا علاقة له بموضوعنا هذا، وهو أن عملية المعرفة لا تكون إلا بعد جهل، في حين أن العلم قد يكون اكتساباً بعد جهل كعلم الإنسان، وقد يكون حقيقة أزلية كعلم الله. ولذلك لا يجوز أن يوصف الله بالعارف، وإنما يوصف بالعالم(1).

إن ذخر المعارف الذي يتمتع به تاريخ المعارف والعلوم الإسلامية، يرقى أكثرها إلى درجة اليقين. وهو لا يكتسب اسم المعرفة أو العلم إلا بهذا الشرط. ومن ثم فإنك مهما بحثت، لن تعثر بين علماء المسلمين، الذين ألزموا أنفسهم بالمنهج الإسلامي إلى المعرفة، على من بقيت المعرفة حلماً غير متحقق في حياتهم، أو عادوا بمشاعر من القلق والاضطراب. بسبب تصورات مهزوزة غامضة إلى شيء من حقائق الكون وقوانينه.

هل تجد فيهم من سئل عن الموت فلاذ من الإجابة عن هذا السؤال بمثل ما قاله أنشتاين؟ أم هل تجد فيهم من وقف أمام كتاب هذا الوجود الكوني وقفة الحائر الذاهل، معترفاً بأنه لم يعد من رحلته في فجاج المعرفة إلا بأوكس الحظوظ؟

قارن بين قول أنشتاين عن الموت: لا أدري، وما قاله ابن القيم عن الموت نفسه وكل ما يتعلق به في كتابه (الروح) ثم قارن بين ما يؤكده انجلز من أن الأجيال الآتية ستصحح الكثير من أوهامه، وما يقوله الإمام الغزالي عن العالم المحيط بالإنسان وعن أحداث المعاد الكوني في كتابه ((إحياء علوم الدين))، أو كل من الإمام الجويني والرازي وابن تيمية والبيضاوي والعضد

---

(1) انظر ((كبرى اليقينيات الكونية)) لكاتب البحث ص:١٢٩ / ط٣

الإيجي ..إلخ فلقد كان اليقين أنيس هؤلاء العلماء الأفذاذ في رحلتهم إلى المعرفة. ولم نعثر على أي كلمات لهم تنبئ عن مشاعر الضيق التي انتابتهم من جراء معرفة تنأى بهم عن بلوغ اليقين.

وهذا لا يعني أن علماء المسلمين استوعبوا أمور الكون كله علماً. فالمجاهيل التي تحيط بالإنسان أكثر من الموضوعات المكشوفة تحت بصيرته أضعافاً مضاعفة. وجلّ ربنا القائل: ((وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)) ولكنا نعني أن كل ما هو مثبت ومعرَّف به في الخارطة الكونية التي وضعها الله تحت أبصارنا وبصائرنا، يملك الإنسان سبيلاً إلى معرفته ومن ثم إلى اليقين به، إن هو سلك السبيل القويم إلى ذلك.

*　　　　*　　　　*

ولكِن كيف تحقق في المنهج الاسلامي إلى المعرفة هذا اليقين الذي أعوز المنهجَ الغربيّ بلوغه؟ وما هي الخارطة الكونية التي استعان بها المسلمون للمعرفة، في حين أن الغربيين لم يعثروا عليها؟

والجواب أولاً: هو ما قد ذكرته لك من قبل، من أن كل من أراد أن يتجه إلى دراسة فرع من فروع المعرفة الكونية الكثيرة، لابدّ أن يتبين أولاً الجذع الذي تنبثق منه هذه الفروع كلها، ألا وهو الحقيقة الكونية المؤلفة من مجموعة: الإنسان والكون والحياة، تماماً كشأن من بسط أمامه خارطة يستبين فيها موقع مدينة أو دولة أو سلسلة جبال .. لا بد أن يتعرف على الخارطة أولاً.

ثم إن على من يريد أن يتخصص في دراسة فرع من فروع المعارف الكونية التي ألمحنا إليها، أن يبني دراسته المعمقة على ثقافة علمية عامة تبصره بعلاقة العلوم المختلفة، بعضها ببعض، وبكيفية تسلسل المعرفة من علاقة ما بينها.

ما من ريب في أن من يبدأ فيبني دراسته المعمقة على هذه الثقافة العامة التي تبصره بعلاقة المعارف الكونية بعضها ببعض، سيرى أن البنيان الكوني أشبه ما يكون بفصول متوالية مترابطة من كتاب ذي موضوع واحد .. وتلك هي الحقيقة التي يعبر عنها العلماء بقولهم: إن الكون وحدة متآلفة متناسقة تنطق بوحدة خالقه.

فإذا سار الباحث عن المعرفة ملتزماً هذا النهج، وتحقق بهذا الشرط، فلن تبقى آمال المعرفة واليقين غصة وراء صدره، أو أمنية متأبية على التحقيق في حياته، بل يتاح له حينئذ أن يكشف عن الحقيقة سترها، وأن يتعرف على هذا الوجود الكوني الذي يعيش في فلكه، معرفة قد تكون غير عميقة، ولكنها تكون صحيحة تبعث الطمأنينة في نفسه بكل جزم ويقين.

* * *

إذن فقد تبصر العلماء المسلمون بهذه الحقيقة، إذ أتيح لهم أن يتعرفوا على الجذع الكوني الذي تنبثق منه فروع المعارف كلها، في حين لم يتح ذلك للباحثين الغربيين، فكان شأنهم كمن قفز إلى دراسة الجملة العصبية في الإنسان فوق المرحلة التأسيسية التي لا بدّ منها وهي دراسة التشريح.

ولكن فما هو الجذع الكوني لفروع المعارف المختلفة، ذاك الذي عثر عليه المسلمون فتعرفوا عليه، وانطلقوا منه، في حين لم يتح للغربيين العثور عليه والاستفادة منه؟

إنه القرآن!.. هو الخارطة الكونية التي تضع بين يدي الإنسان خلاصة العالم: صوره وأحداثه وصلة ما بين جهاته وأجزائه، جامعاً بين أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل.

ولسوء حظ الغربيين فقد كان القرآن (هذه الخارطة الكونية الجامعة) بعيداً عن أنظارهم واهتماماتهم، وإنما أقصد أولئك الذين كانوا ولا يزالون يبحثون عن اليقين دون أن يجدوه.

ولنتأمل الآن كيف تتحقق المعرفة السليمة التي تبعث على اليقين العقلي والطمأنينة النفسية، لدى الرجوع أولاً إلى خارطة الكون ((القرآن)) والمفروض أنك سبق أن تعرفت عليه ووقفت على الدلائل القاطعة بأنه يستحيل أن يكون كلام مخلوق، وبأنه لا يمكن إلا أن يكون كلام الخالق.

يبدأ القرآن فيتحدث للإنسان عن ذاته، ويعرفه على مبدئه ومزاياه الكونية ومنتهاه، وذلك نظراً إلى أنه – بما يتمتع به من عقل ورشد – هو الأداة الأولى في عملية الإدراك والفهم، وهو العنصر الأول من عناصر الحضارة الإنسانية .. وهي البداءة التي تجعل المتدبر للقرآن يقف طويلاً أمام مرآة ذاته، يكتشف مظاهر تكريم الله له وتفضيله على كثير من الخلائق الأخرى. ولكنه يكتشف أيضاً ما هو أهم من ذلك، وهو عبوديته ومملوكيته لله عز وجل في كل الأحوال والتقلبات.

ثم إن القرآن يقود المقبل إليه والمتدبر له إلى الوقوف على حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ألا وهي الحياة التي تسري في كيان الإنسان. يحدثه القرآن عن مصدرها وقيمتها ودور الإنسان في رعايتها والاهتمام بها، وعن الحالات التي يجب عليه فيها أن يكون ضنيناً بها، والحالات التي ينبغي أن يضحي فيها بها.

ثم يأتي دور الحديث عن المكونات الهائلة الكثيرة التي تحيط بالإنسان مسخرة له، فيحدثك القرآن عن مظاهر ربوبية الله وحكمته ووحدانيته فيها، ويلفت نظرك إلى الوظائف التي أقامها الله عليها لخدمة الإنسان وتحقيق رغائبه، وإلى العلاقة السارية ما بينها وبين الإنسان والشروط التي تؤديها لاستمرار حياته وحمايتها من أي سوء.

ثم إن القرآن يؤكد لك أن بنيان هذا الوجود الكوني، إنما نهض على دعامة من خلق الله له ابتداءً، ودعامة أخرى من رعايته دواماً، وأن محور هذا البنيان إنما هو الإنسان، وأن المهمة التي أنيطت به هي عمارة الأرض وإقامة مجتمع إنساني سليم عليها، تشرق فيه العدالة وتشيع في أنحائه الرحمة .. ولما كان الإنسان عاجزاً عن تحقيق ذلك استقلالاً، فقد أنجده الله بتعاليم لإقامة موازين العدل، ولاستثارة أسباب المحبة والتراحم .. وقد شاء جل جلاله أن يلزم الناس بذلك إلزاماً، وأن يشدّهم إليه بعوامل الترهيب والترغيب ..

لقد تمثل إذن الهيكل الكلي للكون أمام الإنسان المقبل بتدبر إلى القرآن، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمام عينيه عندما ينظر إليها، قائمة بجذعها على أرض مستوية، ليس بينه وبينها حجاب أو سحاب.

نعم .. هكذا يتمثل الوجود الكوني كله أمام بصيرة كل من أقبل يصغي إلى مناجاة القرآن وتعاليمه، فاتحاً له عين بصيرته، معرضاً عن مشوشات عصبيته. فإذا انطلق من هذه الصورة الكلية إلى ما يريد أن يناله من مختلف العلوم والمعارف الكونية، لم يحجبه عنها غبش الجهالة بها والاستيحاش منها، ووجد عقله بما هو مسخر له منها، أمام أسرار مكشوفة وحجب مرفوعة، فإذا تجاوزها إلى ما وراء ذلك من الغيوب التي طوى الله عن الإنسان سبيل العلم بها، سلّم الأمر للخالق الحكيم، وعاد من جهله بها راضي النفس مطمئن البال(1).

(1) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن لكاتب هذا البحث: ص١٢٦و١٢٧

* * *

إن فرق ما بين الرؤية الإسلامية من خلال القرآن إلى الكون، ورؤية الفكر الغربي له، أن الرؤية القرآنية تضع الرائي من الكون أمام جهاز مؤلف من أجزاء متراكبة متناسقة يظل التفاعل البنّاء سارياً فيما بينها، ومن ثم فهو يدرك قيمة الجزء منها بما يتبينه من الأجزاء الأخرى، ويكتشف كمال كل منها بما يراه من الارتباط الوثيق الساري فيما بينها. ثم يعود فيقف من القرآن أمام مرآة ذاته، وقد تبين هويته، ووظيفته التي أقامه الله عليها، ومكانته التي يتبوؤها من الكون كله.

أما الرؤية الغربية، فهي تضع الرائي أمام نثار من ظواهر كونية شتى، لا يدري من أين جاءت وكيف انبثقت. ومهما تأمل فيها فإنه لن يرى في عمق ما ينظر إليه، إلا ساحة وجودية مجهولة الآفاق، سداها ولحمتها نسيج من الألغاز!..

ومن ثم فإن الشأن فيه عندما يتجه بفكره إلى عملية المعرفة والعلم، أن يلتقط من تلك الظواهر الكونية المتناثرة أمامه (فيما يبدو له) ما يحب أن يدرسه ويسبر غوره، دون أن يدرك أنه إنما حصر نفسه بذلك ضمن مربّع في شبكة كونية متواصلة الخيوط والحلقات. فهو كلما أراد أن يزداد في مربّعه الذي حصر نفسه فيه غوصاً وعمقاً، اصطدم بمزيد من العلاقات المجهولة، والمشكلات الناشئة من ظاهرة الحركة الكونية الواحدة ووظائف الجهاز الكوني المنعكس على النقطة التي حصر نفسه فيها.

وينبغي أن أذكّرك هنا بالقاعدة العلمية القائلة: إن دراسة ٢٠% من كتلة ذات أجزاء متراكبة متفاعلة، ليس من شأنها أن تؤدي بالضرورة إلى معرفة ٢٠% من حقائق تلك الكتلة. بل إن مثل هذه الدراسة العقيمة، قد لا تؤدي إلى معرفة حتى ١% من تلك الحقائق، أو ربما توصل صاحبها إلى مجموعة تصورات مشوشة خاطئة عن مجموع تلك الكتلة.

وأعود إلى داروين، الذي استشهدت بكلامه قبل قليل .. إنه –كما نعلم- بذل جهداً شاقاً في دراسته لأصل الأنواع، ومنها الإنسان، آملاً أن يحوّل خياله عن أصل الإنسان إلى حقيقة علمية ثابتة. ولكنه اصطدم في سعيه إلى ذلك بعقبات شتى. بل بوسعك أن تلاحظ أنه كلما حاول أن يزداد في عرض نظريته عمقاً وسبراً لغور الموضوع ازدادت في وجهه المشكلات ظهوراً،

وتجلت أمامه عوائق ذات صلة بموضوعات أخرى لم يكن حافلاً بها أو متنبهاً إليها، حتى ألجأته في أكثر من موضع إلى أن يعتذر عن عجزه عن الإجابة عن المشكلات المستعصية التي راحت تتزايد أمامه .. بل أكد أنه يعجز عن الإجابة عن مشكلات أقل منها تعقيداً.

ولكن هذا الموضوع لم يؤرق أذهان العلماء المسلمين، ولم يستأثر باهتمامهم، ذلك لأن القرآن وضعهم أمام أصل الإنسان ونشأته، عندما وضعهم من الحديث عنه وعن كل ما يتعلق به، أمام مرآة الذات، وكلٍّ من مبدئه ومنتهاه. ثم زاد يقينهم بذلك رسوخاً، إذ قال عن الأخيلة والأوهام التي أرهق دارون وأمثاله عقولهم وأنفسهم بها ((ما أَشْهدتُهم خلْقَ السماواتِ والأرضِ، ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً)).[الكهف:٥١]

* * *

بوسعك الان، بعد أن تبينت الثغرات الكبيرة، في منهج ((المعرفة)) عند الغربيين، وهي الثغرات التي يتنزه عنها منهج المعرفة في القرآن، أن تعلم المراد بقوله تعالى: ((ما فرطنا في الكتاب من شيء)).[الأنعام:٣٨] وأنه ليس كما يتوهم السطحيون من أنه حوى العلوم والمعارف كلها، وإنما المعنى أن القرآن قد حوى أصول المعارف كلها عندما وضع الإنسان أمام الرسم البياني الشامل للوجود الكوني بأسره، إلى درجة أن اكتشاف أي حقيقة علمية لا يكتسب قيمته العلمية الصحيحة إلا إذا تم ضمن تصور سليم لذلك الرسم البياني.

وبوسعك الآن أن تتبين الجواب عن الإشكال الذي يردده الكثير من الناس، عندما يقفون على قوله تعالى: ((إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ)) [فاطر:٢٨] وهو قولهم: إن الدنيا مليئة اليوم بالعلماء الأفذاذ، ومع ذلك فإن الكثيرين منهم لا يؤمنون بالله، فضلاً عن مخافته. والجواب أن هؤلاء ليسوا (كما قد تبين الآن) علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة .. وإنما هم أولئك الذين أعلنوا إعراضهم عن البحث عن اليقين في قضايا الكون، واستبدلوا بذلك الأنشطة العملية المهنيَّة القائمة على التجربة .. وهي ليست علماً إلا بالمصطلح الغربي الحديث .. فإذا طاب لهم أن يتجهوا بوسائل المعرفة عندهم إلى التبصر بحقيقة من الحقائق الكونية، وضعوا المكبرات على رقعة صغيرة من قلب الخارطة الكبيرة، ثم حملقوا في تلك الرقعة، حيث الحقيقة التي يبحثون عنها، وهم

عن الخارطة ذاتها غافلون!.. بل إنهم نموذج لأولئك الذين يحصرون أنظارهم من الجسم الإنساني كله في الكبد وحده، وهم عن مجموع جهازه العضوي معرضون([1]).

ومن أجلى الأدلة على ذلك أنهم أنفسهم، يعترفون، بعد كل ما يستحصدونه من المعارف والعلوم، بأنهم يعانون من وطأة الجهل وأنهم بحاجة ماسة إلى المعرفة .. وبأنهم لا يجدون في معارفهم طمأنينة يركنون إليها، مهما دقت وتعمقت، بل يظلون نهباً لدوّامة حيرة تطوف بأذهانهم وأنفسهم. وقد ذكرت لك نماذج من اعترافاتهم، من قبل.

كما أن من اليسير عليك الآن أن تعلم الجواب عن إشكال آخر ينبثق في أذهان كثير من الناس عندما يقرؤون قول الله تعالى عن العلماء الغربيين وأمثالهم: ((يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا)) إذ يخيل إلى المستشكلين أن كلمة ((ظاهراً)) تعني المدارك السطحية للشيء، بالمعنى المتداول عند الناس، وهو مالا ينطبق على العلماء الغربيين.

ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشيء تتمثل، أول ما تتمثل، في المعرفة التي يُزهَى بها من لم يعلم بعدُ شيئاً من هذا المعلوم وحجمها وحقيقتها، ولكنه انطلق يغوص بدلاً من ذلك، في أجهزتها ودخائلها الجزئية، تائهاً وسط حجمها الفسيح، غير متعرف على ذاتيتها من حيث هي.

والمهم أن مثل هذا العمل، وإن بدا في ظاهره سبراً للغور وتعمقاً في الفهم، ولكنه في واقع الأمر وحقيقته سطحية متناهية .. وهذا هو بالضبط معنى قوله تعالى عنهم: ((يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا)).

* * *

وبعد، فإن الفلاسفة لم يتنكبوا عن الحق عندما وجهوا أنظارهم ومداركهم إلى المكونات يبحثون عن حقيقتها وينشدون الوصول إلى يقين بشأنها .. ولكنهم أخطؤوا في المنهج الذي ينبغي أن يسلكوه لبلوغ ذلك.

حمّلوا عقولهم وحدها مهمة إدراك الحقيقة والبلوغ بشأنها إلى يقين، دون أن يفرقوا بين الحقائق المادية التي تخضع للحس والتجربة، والحقائق الغيبية التي ليس للحواس إليها من سبيل .. فحمّلوا

(١) انظر "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن: ص:١٣٤

عقولهم من هذه المهمة الثانية أعباء تتجاوز طاقتها، وعادوا من جهودهم المعرفية بأخيلة وأوهام لا سند لها ولا دليل عليها.

ثم إن الفلاسفة المسلمين صححوا الخطأ وقوموا المنهج، عندما قرروا أن السبيل إلى إدراك الحقائق الغيبية إنما هو النقل أولاً والعقل ثانياً .. ومستند النقل إنما هو الخبر الصادق الواصل إلينا بالتواتر .. وهو كتاب الله عز وجل والمتواتر من صحاح السنة، أما العقل فهو الأداة التي لا بدّ من الاعتماد عليها في فهم كل شيء، أياً كان مصدره، وأياً كان نوعه، أي حسياً خاضعاً للتجربة أو غيبياً خاضعاً للنقل.

وفي كل الأحوال لا بد من الاحتكام إلى المنهج القرآني القائل: ((ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً))[الإسراء:٣٦].

* * *

فهرس بأسماء مراجع البحث:

- وليم جيمس: إرادة الاعتقاد.
- داروين: أصل الأنواع.
- جون ديوي: البحث عن اليقين.
- برتراند رسل: سيرتي الذاتية.
- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية.
- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن.
- انجلز: انتي دوهرنغ.